الفصل الثالث

سلمان واليهود

- سلمان عاملاً فى مزارع بنى قريظة
- عند امرأة من المدينة
- معايشة سلمان لليهود فى فارس والشام
- اليهودية والمسيحية
- منهم مُقتصدون
- هل كان يمكن أن يتهوّد سلمان ؟
- الإسلام يفك أسر سلمان
- تسابيح وابتهالات
- ملحق الفصل: ما كتبه ألان أنترمان عن اليهود والأغيار (أى غير اليهود)

علمنا من الفصل السابق أنَّ سلمان الفارسى رضي الله عنه حمل المسيحية بين جنبيه واعيًا بما فيها من نبوءات عن نبى خاتم يصحِّح ما فى الدينين السابقين ويأخذ بخير ما فيهما، وراح سلمان متخذًا طريقه إلى شبه الجزيرة العربية ـ إلى أرض ظهور النبى الخاتم حسب النبوءات، ولندعه يحكى ما حدث له بعد ذلك : « . . . ثم مرَّ بى نفر من (قبيلة) كَلْب تجَّار فقلتُ لهم : احملونى إلى أرض العرب، وأعطيكم بقراتى هذه وغُنَيْمتى هذه. قالوا : نعم، فأعطيتهموها، وحملونى معهم حتى إذا بلغوا وادى القرى ظلمونى فباعونى لرجل يهودى عبدًا، فكنت عنده ورأيتُ النخل فرجوت أن يكون البلد الذى وصف لى صاحبى، فبينا أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بنى قريظة من المدينة فابتاعنى منه، فاحتملنى إلى المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتُها حتى عرفتها بصفة صاحبى (الراهب) لها فأقمتُ بها . . . [ابن هشام، جـ٢ ص ص ٤٤-٤٥].

ولما سمع سلمان بقدوم النبى ﷺ إلى قُباء أخذته العُرَوْراء (الرَّجفة) فكاد يسقط من فوق النخلة، وراح يقول لحامل الخبر : ماذا تقول ؟ فغضب سيِّده اليهودى ولكَمَ سلمان لكمة شديدة، وقال له : مالك ولهذا ؟ أقبل على عملك. قال سلمان : أردتُ أن أستَثْبِتَه عمَّا قال . . [ابن هشام، جـ٢، ص٤٦].

وفى رواية أخرى، ذكرها ابن سعد فى الطبقات الكبرى (ت ٢٣٠هـ) [جـ٣، ص٥٧] أنَّ التى اشترته امرأة من المدينة «وسمعتهم يذكرون النبى، وكان العيش عَزيزا، فقلتُ لها : هبى لى يومًا (أى يوما يعمل فيه لحسابه) فقالت : نعم، فانطلقتُ فاحتطبتُ حطبًا فبعتهُ فأتيتُ النبى . . إلخ».

وليس من تناقض بين الروايتين فقد يكون اليهودى القُرظى قد باعه لهذه المرأة، وقد تكون المرأة قد باعته لهذا اليهودى القُرظى، والأهم من هذا أنَّ هذه المرأة كانت هى أيضًا يهودية فى الغالب الأعم كما ستوضح السياقات التالية.

عايش سلمان إذًا يهود شبه الجزيرة العربية وما كان لرجل مثل سلمان خَبَرَ الديانات السابقة وتردّد على الأحبار والرهبان وكان قبل ذلك قَطنًا للنار المجوسية، ما كان له ألا

يهتم بأمور الدين اليهودى الذى عايش أهله، لكن الأهم أن سلمان لم يكن جاهلا باليهود واليهودية حتى قبل أن يصل إلى شبه الجزيرة العربية.

فقد كان لليهود وجود حقيقى فى بلاد فارس طوال أيام الدولة الساسانية وكانوا يحظون بالتسامح خاصة إذا لم يتدخلوا فى الشأن السياسى، وتزوج بعض أباطرة الساسانيين من يهوديات [كريستنسن إيران فى عهد الساسانيين، ص٢٥٨] ولم تكن الجماعات اليهودية تُهدد سلطة رجال الدين الزرادشتية أو كيان الدولة الإيرانية، حقيقة إن أردشير الأول كان قليل المراعاة لليهود . . . كما حاول اليهود أن يُعفوا أنفسهم من الضرائب فتعرَّضوا لمضايقات، لكنهم بوجه عام كانوا يستطيعون العيش فى سلام مستظلين بحماية الملك [كريستنسن، ص٢٥٣].

والأهم من هذا أنَّ المسيحيين وحتى أيام سلمان كانت منهم «أمَّة مقتصدة» أى غير مُغالية، ونجد لهذه الأمة المسيحية «المقتصدة» تراثًا فى صراعها مع الزرادشتية التى دخلتها البدَع. لنقرأ هذه المساجلات التى قدّمها لنا كريستنسن [ص٢٧١-٢٧٣].

لقد ردّت طائفة من هؤلاء المسيحيين على دعوة الحكومة بضرورة اعتناق الدين الزرادشتى المحرّف قائلين فى وثيقة مكتوبة: «الحقّ أننا كنّا ونحن فى قصرك وبحضرة المغَان الذين يُسمّون مُشَرِّعين (علماء الدين الزرادشت) قد هزأنا بهم واحتقرناهم فإننا نُكن لهم اليوم أكثر من هذا وذاك. إن كُنت تريد إجبارنا على قراءة كُتبك والإصغاء إليها، وهى كُتب لاتعنينا ولايمكن أن تكون موضوع تفكيرنا، ثم نحن زيادة فى احترام إرادتك لم نكن نريد أن نفتح كتابك ونقرأ ذلك؛ لأنَّ دينًا نعرفه باطلاً ونعرف أنَّه أوهام رجال بُلهاء وقد نقل تفاصيله إليك مشرِّعوك مشرّعو الزور! دينا كهذا تعرفه أكثر مما نعرفه لا يستحق أن نقرأ عنه أو نصغى له. والحقيقة أننا حين قرأنا شريعتك اضطررنا إلى أنْ نهزأ بها، وكذلك سخرنا من هذه الشرائع والمشرّعين ومن يؤمنون بمثل هذه الأضاليل ومن أجل هذا رأينا عبثًا غير لائق أن نكتب وفقًا لأمركم قواعد ديننا ونرسلها لكم. لأنّا لم نعتقد أن دينكم الباطل المضل جدير أن يُقْرأ وأن يُعرض علينا، كى لا نؤذيكم بالسخرية منه، فكان عليكم لحكمتكم العالية أن تفكروا فى هذا حين كتبتموه، وأرسلتموه إلينا فكيف نستطيع إذًا أن نعرض على جهلكم ديننا الإلهى المقدس وأن نسلمه إلى سخرياتكم وشتائمكم؟ وأمّا ما يمسّ عقيدتنا فاعلم علم اليقين أننا لن نعبد أبدًا ما تعبدون. لن نعبد العناصر والشمس والقمر والهواء والنار. ولن

نعبد هذه الآلهة كلها التى تسمونها فى الأرض والسماء ولكننا كما تعلمنا، **نَعْبد إلهًا واحدًا حقّا هو خالق السماء والأرض وما فيها**. . . » ليس فى هذه الرسالة إلا التوحيد الخالص. إنّه دين اليهودى إذا تحوَّل إلى المسيحية، وهؤلاء المسيحيون الذين لم يتخلَّوا عن فكرة الإله الواحد الذى لم يلد ولم يولد، هم الذين رحبوا بالإسلام ولم يجدوا مشقَّة فى قبوله. وتقول المصادر المسيحية واليهودية: إن الكلمة (يهود) لم تصبح علمًا على كل بنى إسرائيل إلا قُبيْل السّبى البابلى (أواخر القرن السادس قبل الميلاد) تمييزًا لهم عن اليهود الآخرين المحيطين بهم (كان هناك إذًا يهود من غير بنى إسرائيل، وهذا هو المنطق، وهذه هى طبيعة الأشياء)، وأثناء السبى البابلى وبعده أصبحت كلمة (اليهود) تُطلق على كلِّ من اعتنق الديانة اليهودية سواء أكان يدّعى الانتساب لبنى إسرائيل أم لا. واليهود الذين اعتنقوا الديانة المسيحية كان يُطلق عليهم فى بداية الأمر اليهود ـ هذا يهودى آمن بالمسيح [الرسالة إلى أهل غلاطية ٢/ ١٣، وأيضًا الموسوعة الكتابية، جـ٨ص٣٠٧]. لكن بعد ذلك تأكد الفصل بين اليهود والمسيحيين. واليهوديون جماعة من اليهود اعتنقوا المسيحية وحاولوا أن يعرضوا على المسيحيين، الناموس اليهودى وخاصة الختان. وفى الأيام الأولى للكنيسة كان معظم المسيحيين من أصول يهودية، وكانوا أقلية مُضْطهدة عاداهم اليهود الذين لم يتنصَّروا، لكن بمرور الوقت دخلت أعداد كبيرة من غير اليهود فى المسيحيّة.

كان اليهود الذين تحوَّلوا إلى المسيحية هم الذين حطَّموا فكرة العرْق أو الجنس أو الشعب المختار، فهم بتحولهم إلى المسيحية ـ على مذهبهم التوحيدى ـ يكونون قد أنكروا فكرة أنهم الشعب المختار. لكن هذه الفكرة ظلَّت راسخة عند اليهود الذين لم يتحوّلوا إلى المسيحية حتى أتى الإسلام فتحول كثيرون منهم إليه مؤكدين بتحولهم أن «الحمد لله رب العالمين».

ما كان سلمان إذًا ليدخل اليهودية التى واجه بقاياها فهو إن دخل فى اليهودية أصبح يهوديّا من الدرجة الثانية أو الثالثة فهو ليس من بنى إسرائيل. وقد شهد سلمان بنفسه عندما قدم المدينة استعلاء اليهود الذين ادَّعوا النسبة إلى إسرائيل على اليهود الآخرين.

يلاحظ فى النقول التى نقلناها فى هذا الفصل عن عمل سلمان رقيقًا فى حيازة يهوديين، أنَّ اليهودى الأول من (بنى قريظة) كان يُسىء معاملته، لقد لكمه لكمةً قوية آذته لا لشىء إلاَّ لأنَّه وجّه سؤالاً عن حقيقة النبى الذى كان قد وصل للمدينة، بينما عاملته يهودية المدينة برفق عندما منحته يومًا يعمل فيه لحسابه ليتكسّب فى أيام كان

المعاش فيها عسيراً عليها وعليه، كما أن اليهودى الأوَّل يدعى نسبه إلى بنى إسرائيل، أى يظن نفسه عرقًا مميزًا. إنه من يهود بنى قريظة، أما المرأة اليهودية فهى من اليهود العرب الذين كانت الطائفة اليهودية الأولى تعتبرهم أدنى درجة. كانت اليهودية ـ إذًا ـ بين يَدَى العالم سلمان الفارسى الذى خَبَر الزرادشتية والمسيحية، وها هوذا يعايش اليهود، فلماذا لم يتحول إلى اليهودية؟ لقد كان فى ظل اليهود رقيقًا، لكنه تحرَّر فى ظل الإسلام بعد ذلك. لم يَلْكُمه رسول الله ﷺ، ولم يسترقه، وإنما افتكَّه من الرق، ليكون حرًا.

لقد شاهد سلمان بأم عينيه وسمع بأذنيه أنَّ أوَّل من بشَّر بقدوم النبى ﷺ إلى المدينة هو «رجلٌ من يهود» أى من اليهود الذين يدعون النسبة إلى بنى إسرائيل، إذ قال مناديًا: «يا بنى قَيلة (الأوس والخزرج) هذا جدكم قد جاء» وهو يقصد النبى الإسماعيلى (الذى هو من نسل إسماعيل)، ولا بد أنَّ سلمان عَرف من معاشرته لهم أنهم كانوا فى انتظار نبى لكنهم فوجئوا أنه من نسل إسماعيل (جد العرب / هذا جدكم قد جاء) وكانوا يتمنون أن يكون من بنى إسرائيل. لكن اليهود بشكل عام سواء كانوا من بنى إسرائيل وهم الذين تُطلق عليهم كتب السيرة كلمة (يهود) دون (ألف ولام) فالكلمة غير معرفة تعنى عرقًا أكثر مما تعنى دينًا أو تعنى قبيلاً من الناس كما قال ابن منظور. شاهد سلمان الترحيب الحَذر بوصول النبى ﷺ إلى المدينة، كما شاهد انقلابهم على النبى ﷺ بعد ذلك لأسباب سياسية واقتصادية وإن لَبسَت لبوسًا دينيّا. ولم يكن كل يهود معادين للنبى ﷺ، فقد حارب مخيريق وهو رجل من يهود إلى جانب النبى ﷺ فى غزوة أحد، وقال النبى عنه بعد أن علم موته فى الغزوة «مخيريق خير يهود» ووجد سلمان الفارسى كل أجناس البشر محيطة بالداعى الرسول. وجد بلالاً، ووجد أنسة الحبشى، ووجد أبا كبشة الفارسى، ووجد مهْجعًا اليمنى، وصُهَيْبَ بن سنان الرومى. ووجد سلمان أن النبى ﷺ أمر بعض أتباعه بالهجرة إلى أرض مسيحية هى الحبشة.

لماذا لم يتحول سلمان إلى اليهودية مع أن اليهود كانوا ذوى ثراء؟ نظن أن الإجابة عن هذا السؤال أصبحت يسيرة سهلة بعد أن عرضنا فى هذا الفصل صلة سلمان باليهود بعمله معهم ومعايشته لهم فى شبه الجزيرة العربية، وقبل ذلك فى فارس والشام. لقد كان سلمان يتطلع للدين الحنيف الذى دعا إلى العَدْل وطبَّقه، ودعا إلى التوحيد الخالص الذى كان جوهر رسالته.

تسابيح وابتهالات

سبحانك يا رب العالمين.

لا تأخُذُك سنة ولا نوم.

كانَ عرشك على الماء.

خلقتَ السماوات والأرض.

وخلقَت النُّور والظُّلمة.

ورفعتَ السماء بلا عَمَد.

وَفرّقتَ اليابسَ عن الماء.

وأمرتَ أن تُنبتَ الأرضُ عُشبًا وشجرًا وثمرًا.

وخلقتَ الكواكب والنجوم،

وخلقت كلَّ ما فى جوف البحر،

وكلَّ ما فوق الأرض،

وكلَّ ما يحلِّق فى الهواء،

وخلقت الإنسان على صورته،

أما أنتَ ـ سبحانك ـ فليس كمثلك شىء.

أتممت خلقَك،

وظللت سهرانَ يقظا، لاتأخذك سنةٌ ولانوم،

مَن قال إن التعب أصابك فاسترحت فى اليوم السابع ؟!

حاشاك يا رب،

فأنت ـ سبحانك ـ ما مَسَّك من لُغُوب

بل أنت خلقت خلقًا آخر لا نعرفه،

فأنت تخلقُ ما لا يعلمون،

سبحانك جَبَلتَ آدم من تُراب الأرض،

ونفختَ فيه نسمة الحياة،

فصار آدم نفسًا حيّة،
وعمَّرت يا ألله جنة عَدن،
ليأكل من كل أشجارها،
إلا شجرة نهيته عن الأكل منها،
نهيته لتُعلِّمه الطاعة،
لا لتحجب عنه معرفة الخير والشر،
فالخالق لا يغار من مخلوقاته،
أتَخلقنى ـ سبحانك ـ من طين ثم تحجبُ عنى نور المعرفة؟!
أتحجبها عنّى حتى لا أنافسك!
سبحانك هذا بهتان عظيم،
ومن ضلع من أضلاع آدم خلقَ الله له حوَّاء،
فأنسَ بها وأنسَت به.
وأغوى الشيطان المرأة.
يقال إنه ظهر لها فى صورة حيَّة.
فأغواها بالأكل من ثمار الشجرة المحرَّمة،
فأكلت منها وأطعمت آدم،
فبدت لهما سوءاتهما،
فخاطا لنفسيهما مآزر من أوراق التين،
فأعادهما الله إلى الأرض التى من ترابها خُلقا.
سنَّة الله ألاَّ يعيش الإنسان إلاَّ بالعمل.
العمل عبادة.
ليس العمل لعنة.
ليس بسبب الخطية الأولى،
إنما طرد آدم من الجنَّة لأنَّه عصى،
ربِّ أنتَ لم تمنعنى العودة للجنَّة،
فالطريق إليها واضح،
أنْ أتَّقى،
فاجعلنى من المتَّقين،

أن أعمل وأفيد،
فاجعلنى من العاملين النافعين،
ساعتها لن يحول بينى وبين الجنَّة أحد،
حتى ملائكة الكروبيم
لن أقْتُل أخى يارب،
فالأرض لا تقبل الدّم المسفوح.
كل ما قدِّم بإخلاص أنت تقبله،
إنما يتقبَّل الله من المتَّقين،
أقدِّمه لأطعم عبيدك،
وأصلح أرضك،
لا لأحرقه فتشمَّ سبحانك رائحته،
فأنت ـ سبحانك ـ فى غنى عن تَقْدمة محروقة،
أنحر يارب قربانًا لك،
فأطعم نفسى وأهلى،
وبجزء منه أتصدَّق.
لا أحرقها قربانًا على مَذبحك،
والناس يتضوّرون جوعًا،
هكذا أفهم معنى الصدقة والقربان.
وهكذا فهمها عبدك سلمان فأسلم.
أسلم سلمان لهذا،
ولهذا أيضًا أنا مسلم،
أسلم سلمان فوحَّد،
وأنت واحد أحد إليك كلُّ قربان،
ولهذا أيضًا أنا مسلم.
امنع عنَّا الشر يا ربنا.
وامنعنا أن نأتيه،
فإن كَثُر الشرّ،
فليس إلا الطوفان،

طوفان لا يُبقى ولا يذر،
قد يكون الطوفان ماء،
وقد يكون حربًا تحصد،
وقد يكون قنبلة فتّاكة يُلقى بها مجنون،
فتسمِّم الأرض والجو وتخنق الإنسان،
تخنقه أو تحرقه،
نجِّنا يا رب من القوم الظّالمين.
لا تدعنا نخرب بيوتنا بأيدينا.
فعدلك أرحم.
ونحن دومًا عبيدك.
نجِّنا ولو فى قُلك من خشب السَّرو،
مطلى بالزِّفت من الداخل والخارج،
فالزفت فى بلادنا كثير.
أنت ترانى دومًا يا ربّنا.
قد أضلّ أنا،
لكنك أبدًا ترانى،
لن أضيع منك،
ترانى إن رسوت على جبل أراراط،
أم كُنت فى بَيْداء شاسعة،
أم كُنت بين لُجج البحار.
تعْلم يا ربنا كل نفسى.
إذا وُلدت.
وإذا سعت فى الأرض.
وإذا أتاها أجلها.
وأنت القائل إن سافك دم الإنسان يُحكم عليه بسفك دمه.
والإنسان هو الإنسان.
إنه عبدك يا ألله،
إنه خَلْقك،

لم تبارك بعضًا من سلالته .
لتلعن بعضًا .
فلا تزرُ وازرة وزر أخرى .
لهذا أنا مسلم ،
ولهذا أسلم سلمان .
لم تَقُل ملعون نسل كنعان .
ولم تقل مبارك ـ وحده ـ نسل سام ويافث .
لم تُبَلبل يا ربنا خَلقك ،
لم تشتِّتهم .
لم تلعن بناءهم المدن والأبراج .
هديت الإنسان السبيلين : إما شاكرًا وإمّا كفورًا .
اللّهم اهدنى كما هديتَ خليلك إبراهيم ،
الذى جعلته أبا لأمم كثيرة
والذى جعلت زوجته سارة تُنجب بعد أن يئست .
علّمتنا يا ربنا :
أنه لا ييأس من رحمة الله إلا ظالم .
كلّنا فى انتظار رحمتك ،
رحمتك ليست قصرًا على أحد .
يطولها حتى ابن الجارية .
سمع الله بكاء هاجر وابنها .
جعل من هاجر أمة عظيمة .
بعث ملكًا حفر زمزم .
فارتوت والرضيع .
سمع الله أنين الرضيع
فالله سميع بصير .
وإسماعيل كلمة تعنى (الله يسمع) .
أطاع إبراهيم كلام الله
أوشك أن يضحّى بفلذة كبده .

لكن الله فداه بذبح عظيم .
فالله هو الرحمن الرحيم .
يا رب هب لى زوجة مطيعة .
تصحبنى حيث الخير .
وتمنعنى حيث الشر .
يا من وهبتَ (رفقة) لإسحاق
زوجةً صالحةً تُعين على العبادة
ليست لعَّانة ،
ولا سبَّابة ،
ولا شريكًا مخالفًا
وزوجةً كهاجر البارة ،
هاجر أم العرب ،
هاجر الصبورة التى أكرمها الله ،
يا ربَّ الناسِ كُلِّهمُ ،
سبحانك!
لست إلهًا لبنى إسماعيل وحدهم ،
ولست إلهًا لبنى إسرائيل وحدهم
ولم تلعن الكنعانيين .
ولاسوَّدت وجوه بنى حام غضبًا عليهم ،
فأنت إله لكل الناس ،
بل لكل الخلق ،
يسبِّح بحمدك كل ما فى الكون ،
حتى الشجر ،
حتى الحجر ،
فسبحانك أنت الأكبر ،
الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ،
ولا إله إلاَّ الله ،
لا إله إلا أنت ،
فَفُكَّ أسرى من العبودية ،

واجعل بقراتى سمانًا.
فإن صارت عجافًا.
فألهمنى الصبر،
وإن عميتُ،
فأعد لى البصر،
اجعلنى يا ربنا أرتدُّ بصيرًا،
ألست قادرًا على كلّ شىء ؟!
ألست فعَّالاً لما تريد ؟!
لا إله إلا أنت سبحانك!
الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.
ولا إله إلا الله.

ملحق الفصل الثالث

عن نظرة اليهود للأغيار (غير اليهود) وتطور هذه النظرة عبر العصور. مقتطفات من كتاب ألان أنترمان: اليهود عقائدهم الدينية وعباداتهم Jews, their religious beliefs and practices والمؤلف يهودى تحول إلى المسيحية.
والنص المقدم من ترجمة د. عبد الرحمن عبدالله الشيخ، مؤلف الكتاب الذى بين يدى القارئ.

« تاريخ العلاقات بين الجماعات اليهودية التى تعيش كأقليات ـ غالبًا ما تكون فى محيط مسيحى أو إسلامى ـ والمجتمعات المضيفة، ما هو إلا تاريخ يظهر ما تعرض له اليهود من ازدراء واضطهاد. ولم يحدث إلا أثناء قرون قليلة من بين آلاف السنين الماضية، أن عاش اليهود فى هدوء نسبى.

وبشكل عام فقد واجه اليهود من السوء فى البلاد المسيحية، أكثر مما واجهوه فى البلاد الإسلامية. ففى البلاد الإسلامية كانوا أهل ذمة Protected people (مشمولين بالحماية) مقابل دفعهم ضريبة خاصة (جزية)، ولم يكن مسموحًا لهم بارتداء ملابس شبيهة بالملابس التى يرتديها المسلمون، بالإضافة إلى فرض عدد من القيود عليهم. وقلما كان المسلمون يجبرونهم على التحول إلى الإسلام، برغم حدوث هذا فى حالات قليلة كالتى حدثت فى عهد الموحدين Al-mohades المتعصبين فى إسپانيا فى القرن الثانى عشر، وكما حدث فى شمال إفريقيا، وفى إيران فى ظل الحكام الشيعة المختلفين فى فترات مختلفة.

لقد كان وضع اليهود فى العالم المسيحى Christiandom غير آمن بدرجة كبيرة لتعرضهم لعداء شديد كثيرًا ما كان يشتد أواره بسبب مزاعم مسئولية اليهود الجماعية عن

موت المسيح[1] . وفى أزمنة مختلفة طرد اليهود من الدول الأوروبية، وحظر عليهم قبول تحول المسيحيين إلى اليهودية، وحدد نشاطهم الاقتصادى ليقتصر على مجال أو مجالين ـ خاصة الربا[2] . لقد كانوا عرضة للمذابح التى قتل فيها من لا يحصى عدده من اليهود وسلبوا ونهبوا وصودرت ممتلكاتهم أو دمرت . وكان عليهم أن يدافعوا عن مقولات دينهم ضد دعاوى المسيحية، بالدخول فى مجادلات لم يستطيعوا أبدًا أن يخرجوا منها رابحين . وجرى إحراق التلمود وإن سمح بنشره خضع لرقابة السلطات الدينية المسيحية التى كانت تعتبره معاديًا للمسيحية . لقد عاش اليهود وهم على وعى بأنهم شعب ينبذه المسيحيون ويعتبرونه ملعونًا من الرب محتقرًا من البشر، وإذا لم يجبروا ـ كان هذا يحدث كثيرًا ـ على التعميد (التوجه إلى جرن المعمودية) فقد كان المسيحيون يعاملونهم معاملة سيئة ليكونوا عبرة لكل معارض للمسيح .

إن ذكريات ما حدث كما ورد فى الكتب اليهودية، والأشعار الدينية الطقسية (الليتورجية) والطقوس (الشعائر) التى تحيى ذكرى ما مضى، تعكس الجوانب السلبية للعلاقات اليهودية والمسيحية . وكان لهذا أثره فى نظرة اليهود ـ خاصة اليهود الأشكيناز[3] ـ للأغيار the goi. كان القائمون على اضطهاد اليهود والحط من شأنهم ينظر إليهم كممثلين للعالم المسيحى : الأساقفة والصليبيون[4] والكهنة المحليون الذين كانوا يحرضون جماهير الفصح، ومحاكم التفتيش، والمسيحيون الأتقياء البسطاء واللوردات والبارونات ممن يترددون على الكنائس أو حتى فى أيام وكيل المسيح نفسه Vicar of christ . والدين المسيحى بكنائسه ورمزه الأساسى ـ الصليب ـ وأيقوناته، بل واسم المسيح نفسه، قد ارتبط فى الوعى اليهودى بالقسوة وعدم الإنسانية . لقد أدى ما عاناه اليهود من عناء على يد المسيحيين إلى تعمق شعور اليهود بأن اليهودية أرقى من مسيحية «إنجيل الحب» رقيًا بغير حدود، فاليهود يرون الإنجيل خاليًا من القيم الإنسانية الأساسية . ورغب اليهودى فى التركيز على نفسه، يحفزه على هذا اعتقاده أنه خادم كتب عليه العناء Suffering Servant يكفر بعنائه آثام العالم . لقد عاش فى ظلمات

(١) ليست مزاعم فيما يرى المسيحيون فالأناجيل الأربعة تؤكد ذلك . أما الرأى العام بين المسلمين فهو أن المسيح رفع إلى السماء حيًا ـ المترجم .

(٢) التعامل بالربا خاصة مع الأغيار لم يفرضه أحد على اليهود .

(٣) اليهود من أصول ألمانية وشرق أوروبية .

(٤) الثابت تاريخيًا أن الجيوش الصليبية كانت تقتل اليهود، وهى ـ أى الجيوش ـ فى طريقها للشام، كما قاتلت اليهود والمسلمين على حد سواء فى فلسطين .

المنفى، لكنه يتطلع لفجر العصر الذى يأتى فيه المسيح (اليوم المشيانى[1] ـ Messianic day)، حيث ينزاح الكابوس ويصبح العالم ملكه.

الدين المسيحى

المسيحية، بعقيدتها فى التثليث والتجسد واستخدام تماثيل المسيح المصلوب ومريم (العذراء)[2] وتقديس القديسين، تعتبر فيما يرى مفكرون يهود كثيرون ديانة وثنية[3]، وهى تهمة لا يمكن توجيهها للإسلام. ومن هنا وجدنا موسى بن ميمون الذى عاش فى بلاد إسلامية ولم يخضع لضغوط السلطات الكنسية يذكر مقرراً بشكل مطلق:

«اعلم أن الأمة المسيحية التى ضلت بعد يسوع، برغم تعدد مذاهبها، هى فى مجملها وثنية.. إنه من المناسب أن نتعامل مع المسيحيين كما نتعامل مع الوثنيين، وعلى النقيض من هذا، فإن علماء الشريعة اليهود فى العصور الوسطى ممن عاشوا فى بلاد مسيحية كانوا يميلون إلى إيجاد أساس شرعى (هالاخاوى) لمعاملة المسيحية باعتبارها ديناً مختلفًا عن الوثنية شيئًا ما. وما دامت هناك أسباب اقتصادية تشكل ضغوطًا على اليهود فقد كان لا بد من ذلك ليتمكنوا من الدخول فى علاقات عمل معهم (أى مع المسيحيين). هذا هو التفسير العملى إلى حد كبير، خاصة حيث تمنع الشريعة اليهودية التعامل مع الوثنيين.

وبالرغم من أن إعادة تفسير الشريعة على هذا النحو سمحت لليهود بإقامة علاقات تجارية أساسية مع المسيحيين فإن عدداً قليلاً من الرابيين قد ذهبوا إلى حد استبعاد المسيحيين تماماً من بين الوثنيين الذين ذكر التلمود عنهم أموراً سلبية.

والوثنى «الغريب أو الذى هو من الأغيار nochri or goi» لا يعتبر فى المستوى الثقافى الاجتماعى أو المستوى الخلقى مماثلاً لليهودى، وإنما يفهم أنه موجود على نحو ما يكون الوجود الحيوانى Animal-like existence. فبينما تتطلب معاملات اليهود فيما بينهم التزاماً أخلاقيّا عاليًا ومسلكًا يراعى فيه الدين، فإن هذا غير ضرورى عند

(١) غير المسيح (عليه السلام) الذى لا يعترفون به.
(٢) ما بين القوسين توضيح من المترجم لكن اليهود طبعًا لا يؤمنون بعذريتها ورأيهم فيها معروف ـ المترجم.
(٣) لا يعتبر الإسلام المسيحية وثنية، وإنما من الديانات السماوية التى لها «كتاب» ـ (المترجم).

تعامل اليهود مع الوثنيين[1] فأفضل ما يقدمه اليهودى فى تعامله مع الوثنيين يجب ألا يزيد عن عدم إثارة النزاع أو العداوة.

وكان مناحم ميرى البروڤنسى Menachem Meiri of Provence (١٢٣٩-١٣١٦م) من بين علماء الشريعة القلائل الذين استثنوا المسيحيين من قطاع الوثنيين، لقد قدم حججًا مفادها أن المسيحيين متحضرون ويخافون الله، ولايمكن مقارنتهم بالوثنيين سيئى الأخلاق فى العصور التلمودية. وهناك رابيون آخرون اكتفوا بإبداء ملاحظة عابرة فى مقدمات كتبهم أو عندما يرد موضوع العلاقة بين اليهود والوثنيين لأول مرة، إذ ينكرون أن ما يكتبونه ينطبق على الأغيار (غير اليهود) المعاصرين. وقد يكون هذا هو اعتقادهم فعلا لكن غالبًا ما يفهم القارئ اليهودى هذا على أنه محاولة لتوقى اعتراض الرقيب أو لتجنب إثارة عداوة المسيحيين.

اليهودى وأرواح الأغيار

كان علماء اللاهوت اليهود فى العصور الوسطى أكثر اهتمامًا بمحاولة إظهار صدق تعاليم اليهودية أمام المسيحية والإسلام، من خلال شرح الوضع النسبى لكل من اليهودى وغير اليهودى.

وعلى أية حال، فالاستثناء المهم من هؤلاء هو يهوذا هاليڤى Judah Halevei الذى قدم الحجج فى كتابه «كوزارى Kuzari» لإثبات أن شعب إسرائيل يختلف تمامًا فى تكوينه الروحى عن الشعوب الأخرى. فكل يهودى هو وارث للطاقة النبوية (طاقة النبوة) التى تمكن وحدها الإنسان من معرفة «نفس الله» «و«إرادته»، حتى المتحول إلى اليهودية لا يكون لديه هذه الطاقة عند تحوله إليها، إذ تنقصه «الجينات الروحية Spiri-tual genes» التى لدى من يولد يهوديًا إن جاز لنا استخدام هذا التعبير الحديث.

لقد وجدت الكراهية التلمودية للأغيار Goi وفى أقوى أشكالها فى التراث الصوفى الوسيط وما بعد الوسيط خاصة فى الزهر Zohar والقبالة اللوريانية Lurianic فليس فيهما ـ على عكس ما فى التلمود ـ الكثير جدًا عن مسألة ممارسات الأغيار التى هى

(١) المقصود غير اليهود.

محل خلاف أو مثار نقاش، وإنما فيهما ما يؤكد الاختلاف التام فى الجوهر بين اليهودى وغير اليهودى، وبينما يبدو التلمود يحط من شأن الحياة الروحية والخلقية لغير اليهودى Goi، على أساس نقص قيمه الخلقية وعدم رغبته فى تجاوز الماديات، وجهله بما هو مقدس، فإن القبالة ترى الفرق بينهما من نوع واحد.

فغير اليهودى Goi ينتمى للعالم الفرعى للشيطان، ذلك العالم الفرعى الموجود فى فكر القبالة. فروحه أدنى درجة من روح اليهودى الذى يمتلك ـ على الأقل ـ إمكانات الوصول للبعد المقدس (الإلهى)، والقبالة تستند فى هذا إلى سابقة (شاهد) تلمودية تحكى أن حواء قد لفحتها أفعى شيطانية، ومن ثم فقد تلوثت بذورها، وظل الأمر كذلك حتى أزاح التجلى السيناوى (تجلى الله لموسى فى سيناء) هذا التلوث (النجاسة) عن إسرائيل. فالصوفية يقدمون بهذا رؤيتهم الخاصة عن عقيدة الخطيئة الأولى (الخطيئة الأصلية ـ orig-inal sin) فغير اليهودى Goi كان ابنًا نجسًا (ملوثًا) نتيجة اتصال جنسى بين امرأة وأفعى هى رمز للقوى الشيطانية، وما دام غير اليهودى Goi لم يمر بتجربة التطهير من خلال وحى الله بالتوراة، فإنه يظل نصف إنسان ونصف شيطان.

هذه الفكرة ـ حتى لو كانت من خلال رمزية القبالة الفاتنة ـ يبدو أنها تقيم حاجزًا لايمكن اختراقه بين اليهود وغيرهم، وتسبب مشكلة عويصة للمتحولين اليهود، وتعترف الشريعة اليهودية بالمتحولين إليها كيهود كاملين، لكن كيف يمكن لتحولهم أن يحدث تغييرًا جوهريًا فى أرواحهم (أرواح الأغيار)؟ والزهر Zohar نفسه يحل المشكلة بالنظر للمتحول إلى اليهودية على أن روحًا جديدة أهداها له الله، وإن كانت روحًا أدنى من روح اليهودى (الأصلى). وهناك قباليون آخرون يرون فى المتحول إلى اليهودية شخصًا لديه روح يهودية كانت فى زمن سابق قد ضلت طريقها بين الأغيار، فعلى سبيل المثال قد يكون أجبر أجداده على قبول التعميد. فالتحول إلى اليهودية كان فى الحقيقة عودة يهودى إلى حظيرة الإيمان، عودة يهودى كانت الشرارة اليهودية مختبئة فى طياته فأعادته لحضن اليهودية.

وربما كانت أوضح صياغة عن الفاصل بين اليهود والأغيار هى تلك التى نجدها فى كتابات المعلم الحاسيدى[1] Chasidic فى القرن الثامن عشر، الرابى شنور زالمان

(١) ما حسيدوت.

الليـادى R.Schneur Zalman of Liadi، فـهـو يرى أن لكل يهـودى روحين، روح حيوان، وروحًا قدسية. فالروح الحيوانية تنبثق من أعلى ما فى وسع الشيطان، إنها مصدر الشر ولكنها أيضًا ذات طبيعة خيرة ففيها الرحمة أو النزعة لعمل الخير، ما دامت جـذورها هى « مـحـارة النور Shell of Light » ـ أقـرب نقطة فى التكوين الشيطانى لجانب القداسة holiness أما الروح القدسية فجذورها تمتد فى الله، أو أنها ـ بمعنى من المعانى ـ جزء من الله، أما غير اليهودى، فلا تنقصه الروح القدسية فقط، بل إن روحه الحيوانية تنبثق من مستويات شيطانية أدنى من مستوى الروح الحيوانية عند اليهودى.

الاتجاهات اليهودية نحو الأغيار فى هذه الأيام

عدة عناصر أثرت فى وعى اليهودى بنفسه وتفسير وضعه فى العالم : كثرة ما لحق به من اضطهاد، وأفكاره التى استقاها من عقيدته عن الأغيار، ودور اليهودى الخاص فى شهود توراة الله، وكونه ـ أى اليهودى ـ سيكون هو الأداة المستخدمة فى الخلاص عند نزول المسيح (فى العصر المشيانى أو المسيحى)[1] وترى اليهودية التقليدية التاريخ البشرى ونشاطات الأغيار باعتبارهما عوامل مساعدة (تحقق الهدف اليهودى) فما دام هدف الحياة هو عبادة الله (فما خلق الله الناس إلا ليعبدوه) وما دام هذا الهدف قد تحقق فى الأساس ـ إن لم يكن كلية ـ على يد اليهود من خلال رعايتهم للتوراة والوصايا mitzvot، فإن كل الخلق ليس إلا عاملاً مساعداً لتحقيق مثل الحياة اليهودية.

وقد وردت هذه الفكرة بالفعل فى التعاليم التلمودية، فعند الخلق اشترط الله على السماوات والأرض أنه إذا قبل بنو إسرائيل التوراة فى سيناء فسيكون الأمر طيبًا وصالحًا وإن رفضها بنو إسرائيل فسيعيد الله الطبيعة كلها إلى حالة الهيولى الأولى (اللاتكون)، وقد صيغ ذلك فى تعبير حديث يعزى إلى الرابى إسرائيل مير كاجان Israel Meir Kagan الحكيم اليهودى البارز الذى عاش فى القرن العشرين، والذى يقول فى حكايته الرمزية :

«إن المسافر الذى لم يسبق له ركوب قطار، ينشغل قبل أن ينطلق فى رحلة يستخدم فيها القطار باكتشاف كيف يتحرك القطار فيتجول فى عربات الدرجة الأولى، حيث

(١) الذى لم يأت بعد.

الأثرياء الذين ينعمون بالراحة أثناء السفر فيسألهم عما إذا كانوا هم الذين يقودون القطار فتكون إجابتهم بالنفى فيتجه إلى عربات الدرجة الثانية، ويوجه الأسئلة نفسها وهكذا حتى يصل أخيراً إلى سائق القاطرة فيجده ملطخًا بالسخام؛ بسبب الفحم الذى يجرفه فى الغلاية وهنا فقط يجد الإجابة المؤكدة عن سؤاله».

وهذه الحكاية الرمزية تشير بوضوح إلى كيفية تسيير الكون، إن أثرياء الأغيار (غير اليهود) ومثقفيهم الذين يتحكمون فى العالم، ليسوا هم الذين يسيرونه لمجرد أن الحكم العلمانى فى أيديهم وإنما الذى يسيره هم بنو إسرائيل المنبوذون، المرفوضون فعبادتهم لله هى حقّا التى تضمن استمرار العالم.

إن التناقض بين اليهود والأغيار وقيم اليهود الخاصة المختلفة المتعلقة بالاقتصاد المقدس ـ تلك الأيديولوچية الراسخة عميقة الجذور ـ قد وجد تعبيراً فى كثير من المصطلحات التى يستخدمها اليهود بينهم وبين أنفسهم ليشيروا بها إلى الأغيار. وبصرف النظر عن المصطلحات المحايدة (أى التى لا تنطوى على ازدراء أو غيره) مثل مصصطلحGoi، فأكثر المصطلحات انتشاراً فى اللغة اليديدية للإشارة للأغيار هى شكتس Sheketz (غالبًا ما تنطق شجتس Sheigetz أو Shaigetz) للذكر وشيكاش Shikash للأنثى، وإذا وصف يهودى يهوديّا آخر بهذه الكلمة فمعنى هذا أنه يسبه وغالبًا ما يشير اليهود الأرثوذكس المتشددون Ultra-Orthodox لليهود العلمانيين أو الحداثيين بالكلمة شيكاتزيم Shekatzim باعتبار أنهم هجروا كل ما هو مقدس بتقليدهم للأغيار.

ومع انعتاق اليهودى فى القرن التاسع عشر، وظهور التطورات الإصلاحية فى اليهودية ـ ظهرت سلسلة كاملة من الاتجاهات المختلفة إزاء الأغيار. فالأرثوذكس الأكثر انتحاءً نحو التقليدية ـ الذين احتفظوا بمسافة اجتماعية وثقافية بينهم وبين عالم الأغيار ـ ما زالوا يتمسكون بالانفصال بين اليهود والأغيار كما كان قبل ظهور القيم الحديثة. فعالم الأغيار له كينونة مجهولة لايراه اليهودى إلا من خلال منظومة من الاتجاهات السلبية نحو الوثنيين (بمن فيهم المسيحيون)، ظهرت فى الأدب اليهودى. ويخشى أن يكون هذا الاتجاه نذيراً بحركة عنيفة معادية للسامية ووقوداً لمعاداة العقائد اليهودية والانحلال الأخلاقى الجنسى، إن لم يكن ذلك قد وجد.

واليهود الحداثيون ـ سواء كانوا أرثوذكس أم تقدميين ـ ممن كانوا على صلة مستمرة بثقافة الأغيار، وكانت تربطهم بهم علاقات اجتماعية ـ يميلون إلى إغفال الجوانب شديدة التطرف فى تراثهم الدينى، فيما يتعلق بمسألة الأغيار . وأقصى ما يمكن أن يصلوا إليه فى موقفهم الأيديولوچى فى هذه المسألة هو أخذهم بالعناصر الأكثر ميلاً إلى خلاص كل البشر فى النهاية والموجودة أيضًا فى التراث اليهودى، تلك العناصر التى تشير إلى الفروق بين اليهود والأغيار كفروق فى الثقافة والدين، أكثر من إشارتها إلى وجود اختلاف فى جوهر «روح» كل منهما. وعلى أية حال، فهناك عاملان أثّرا فى وعى اليهودى المعاصر بعمق، وعملا على بقاء النموذج الكلاسيكى الذى ذكرناه آنفًا. العامل الأول: هو ذكرى المحرقة (الهولوكوست)، التى عمقت ـ بشدة ـ الشك فى الأغيار ومدى قدرتهم على نبذ معاداة السامية من ثقافتهم. والعامل الثانى: هو ظهور دولة إسرائيل والقومية اليهودية الجديدة.

ومعظم الأجيال الأكبر سنّا من بين اليهود المعاصرين عاشوا بين الأغيار فى أوروپا قبل المحرقة (الهولوكست)، ويحسون تمامًا ـ وهم فى بلادهم[1] ـ بمثل هذا الوسط الذى سبق أن عاشوا فيه. لقد أغلق اليهود ـ بغلظة ـ باب الشعور بالائتلاف مع البشر ومشاركتهم فى الإنسانية؛ بسبب ما حدث لهم نتيجة معاداة السامية فى ألمانيا وأوروپا فقد أعاد هذا إلى أذهان اليهود الفروق القديمة بين الأغيار واليهود بشكلها الحاد وكعقيدة راسخة مرة أخرى . وغالبًا ما يعبر اليهود عن هذه العقيدة بقولهم، بل إن الحلفاء كانوا فاترين إزاء معاملة هتلر لليهود ولولا سياسته التوسعية لما رفعت الهراوة من فوق رأس اليهود. إن فشل الحلفاء فى بدء غارة جوية ضد معسكر الموت فى أوشفتز Auschwitz death-Camp، قد اعتبر دليلاً على أن الحلفاء كان ينقصهم الاهتمام بأمر اليهود.

والدعم الذى تتلقّاه إسرائيل والصهيونية ـ بشكل أو بآخر ـ من يهود الشتات (الدياسبورا)، ما زال مرتبطًا عند معظمهم بالرغبة فى بقاء الهوية اليهودية. وما يبدو من اختلاف فى مواقف الأغيار الغربيين (الأوروپيين والأمريكيين) من كفاح الكيان الإسرائيلى من أجل البقاء، وموقفهم المنطوى على معاداة الطموحات الصهيونية ـ يبدو

(١) يقصد بلاد فلسطين.

أنه يعكس موقفًا اعتاده اليهود تمامًا ـ عالم غير مهتم ينظر بعينى أعمى لمعاناة اليهود. فالدول الأخرى لها حق تلقائى فى الوجود، لكن على الشعب اليهودى أن يعمل باستمرار على تبرير وجوده أمام الحضارة الغربية التى تنكر عليه باستمرار هذا الحق فى الوجود. ومما يعد دلالة على هذا الاتجاه للحضارة الغربية حقيقة، أن الڤاتيكان رفض أن يعترف بإسرائيل لأكثر من ثلاثين عامًا بعد قيامها. وعلى هذا فمعاداة الصهيونية هى ببساطة ـ وفقًا لشعور اليهودى ـ الشكل الأخير لمعاداة السامية[1].

وربما كان كل هذا ـ بشكله المتطرف ـ تعبيراً عن جنون العظمة الذى يتسم به اليهود على نحو خاص، لكن حساسية اليهود فى هذه الأمور تعكس اتجاهاتهم نحو الأغيار. فالشك فى هؤلاء الأغيار Goi يمتد ليتناول كثيراً من حركات الاضطهاد التى تعرض لها اليهود فى الماضى. وما حدث من تغير فى هذه الفكرة فى الوقت الحاضر، لايتعدى التركيز على وعى اليهود بذواتهم (بتفردهم). ذلك الوعى الذى أخذ بعداً لاهوتيًا بأنهم « شعب يعيش وحيداً[2].a people which dwells alone»

***

(١) المؤلف يتحدث هنا عن آراء اليهود ومشاعرهم، الأمر الذى يهمنا معرفته، لكن شتان بين معاداة السامية ومناهضة الصهيونية.

(٢) المقصود من إيراد هذا النص أن نتعرف على فكر اليهود، وكثير من الأفكار ذات الطابع السياسى فيه مغلوطة، لكن يهمنا ـ بشكل عام ـ لأسباب سياسية واجتماعية واقتصادية معرفتها للتعامل معها أسوة بما فعل الشهرستانى مؤلف (الملل والنِّحل)، والبغدادى، وابن حزم، وابن قيّم الجوزية، وغيرهم فى التاريخ الإسلامى.